على هامش النقد .

خواطر متساوقة

فى النقد والأدب والأخلاق

١ — صرخة إنسانية ٢ — قفزة نقدية
٣ — تفاؤل مطمئن

للأستاذ سيد قطب

فى عدد « الثقافة » قبل الأسبق قصيدة لشاعر شاب « محمد العلائى » بعث بها إلى أبى العلاء « من القاهرة إلى المعرة » ... هى صرخة إنسان مألوم . قذفت به إرادة الحياة إلى دنيا كدنيا أبى العلاء ؛ ولم تكتف بهذا الشبه فى كيانه وموقفه فسمته « العلائى » أيضاً !

وعلى كثرة ما أقرأ من الشعر فى هذه الأيام منشوراً فى الصحف وغير منشور ، فقد وجدت فى هذه القصيدة طعما لا أجده فى ذلك الكثير . وجدت طعم الصدق فى هذه الصرخة المباشرة ؛ فتحركت فى ضميرى كل أحاسيس « التعاطف » . ولا أقول كل مشاعر « العطف » كى لا أوذى الشاعر ، الذى ترتفع حساسته المؤذية حتى يقول هذه الأبيات :

شيخَ المعرّة هل مسّتك أهوالى ؟
وهل طويتَ زمانا تحت أثقالى ؟
هجرت دنياك لم تشهد مباذلها ... ولم تعرّج على صحب ولا آل
ولم تساير مَوَدّات على ريب ... ولم تصانع أذى عم ولا خال
ولا الوجوه إذا اهتزت ملاحمها ... بغمزة السوء من بال إلى بال
ولا العيون إذا رفّت بخائنة ... ولا تميع مسلول ومحتال
ولا حبائل مطموس على جدث ... به رميم الخطايا منذ أجيال
ولم تصعّد أمانيّا إلى شجر ... مدّ الظلال على طين وأوحال
ولم تضاحك غراب البين تحسبه ... غريدَ سانحة من يوم إقبال
ولم تذق خسّة الدنيا إذا مزجت ... كأس القلّ بأشواق وآمال
ولم تكابد رزاياها إذا جلبت ... شؤم العثار على ضيم وإقلال

ووجدت طعم الصدق كذلك فى هذه الصورة الزرية التى يرسمها للجيل البائس الذى نعيش فيه :

بنو الأوان مسوخ لا كيان لهم ... مرضى القلوب خطيئات لآباء
مَوْتى المشاعر إلا يوم تافهة ... عمى البصائر إلا نحو أقذاء
هدّت كيانىَ بلواهم وحيّرنى ... داء التفاهة فى موتى وأحياء
كأن ثرثرة الأفواه فى أذنى ... رشاش سم على قلبى وأحشائى
يقيء سمعىَ أشهى ما يقوه به ... خيارهم يوم سراء وضراء
هم كالذباب فلا خير بأنفسهم ... لأصدقاء ولا شر لأعداء
كلٌّ سواء : فلا بَرٌّ يقيء له ... قلبى . ولا فاجر أصليه بغضائى

يا أخى :

تلك — مع الأسف — صورة بنى الأوان ، فى قلب كل « إنسان » وهى صورة كريهة شائهة ، ولكنها هى الحقيقة الحقيقة . وقد تكون أنت أشد حساسية بها ، ولكنك لست مفرداً فيها .

وإنى لأود لو تبلغ كلماتى هذه إلى أذنيك ، ولو تجاوزها إلى قلبك . ولو تستطيع أن تنقل إليك اهتزاز نفسى ، فتشعر — على البعد — بهذا التجاوب معك فى دنياك !

* * *

وانتقلت من هذه الصرخة الوجيعة إلى مقال بعدد الرسالة الأسبق للدكتور مندور عن « الرقص الكلاسيكى » وليست النقلة بعيدة — كما يبدو — فقد بدأ المقال هكذا :

« بدا لى أن أكتب عن الرقص ، وذلك أملا منى فى تقويم الأخلاق . وقد يبدو هذا غريباً ؛ فكيف نقوّم الأخلاق بالحديث عن الرقص ؟ ومع ذلك فهذا حق ، فالرقص ونقصد به الإيقاعى والتعبيرى — لا الرقص الشرقى طبعاً — يورث من يزاوله من رجال ونساء قوة فى الجسم تحرر النفس من آفاتها »

نحن إذن فى مجال الشكوى من قيود النفس ومن ضمور الأخلاق . فى المجال الذى انبعثت فيه صرخة الشاعر الوجيعة ، لم نعده إلى سواه !

وتعجبنى قفزات الدكتور مندور — فى بعض الأحيان — ففيها طابع الحرارة ، وعنصر الإخلاص ؛ وهو ميسّر لهذه القفزات ، وإن اختلفنا معه فى التطبيق هنا كما اختلفنا معه فى تطبيق « الشعر المهموس » !

اسمعه يقول : « والرقص كما هو رياضة للجسم رياضة للروح . وذلك لأنه يغذيها بشعورين لهما أثر عظيم فى الحياة ، وهما الشعور بالمرح ثم الشعور بالجمال . وليس من شك فى أن هذين الشعورين من أضعف المشاعر عند الشرقيين ، حتى لأحسب أن جانباً كبيراً من ضعف النفوس الذى نشكو منه يرجع إلى الحزن الذى يزل الخراب بالقلوب ، كما أن الإحساس بمعنى الجمال ومعاييره الصادقة يكاد يكون منعدما . والنفس الحزينة لا تعرف الثقة والتفاؤل . والحس الذى لا يدرك الجمال لا يحجم عن الخسيس من الأمور »

وكل ما يختص بأحزاننا الهامدة صحيح . ولقد كتبت فى عام ١٩٤٠ مقالا مطولا فى مجلة الشؤون الاجتماعية تحت عنوان : « مباهج الحياة عنصر أصيل فى الإصلاح الإجتماعى » بدأته بهذه الفقرات :

« نحن فى حاجة إلى حظ كبير من الفرح ، لأننا فى حاجة إلى حظ كبير من الحياة ، وإلى حظ كبير من سلامة الفطرة ، وصحة الشعور ، وهما أكبر مقومات الحياة .

« وحظنا نحن المصريين من الحياة ضئيل ، لأن حظنا من الفرح ، ومن المباهج الروحية ضئيل . وإنما يصح هذا القياس لأن الفرح الإنسانى ظاهرة نفسية وعقلية ، تقابل فى الحيوان ظاهرة القفز والوثب ، وفى الطير ظاهرة السقسقة والغناء ، وفى النبات ظاهرة التفتح والازدهار . وهذه الظواهر جميعاً دليل الحيوية والصحة فى الأحياء .

« نحن فى حاجة اذن الى حظ من الفرح الإنسانى الراقى ، لأننا فى حاجة الى حظ من الحياة الصادقة والفطرة السليمة .

« ولكن أهذا كل ما ينقصنا من ألوان الفرح ؟

« الواقع أن حظنا كذلك ضئيل حتى من الفرح الحيوانى الذى يدل على سلامة البنية وصحة الجسد واكتفاء الغريزة . والحرمان من هذا اللون ربما كان أخطر وأوغل فى العلة ، لأننا بهذا الوضع لا نرتقى فى سلم الصحة حتى الى مرتبة الحيوان ! »

« تشخيص » الدكتور مندور للعلة فى الشرق صحيح . ولكن الذى أخشاه هو ألا يكون قد وقع على العلاج الصحيح . وألا يكون رقصه المقترح هو الدواء المفيد .

فلقد ضرب المثل بالإغريق واقبالهم على الرقص وأثر هذا الرقص فى تربيتهم الخلقية وفى عبادتهم للجمال . الجمال الذى هو قوام العمل الخلقى : « وليس من شك كذلك أن عبادتهم للجمال وحرصهم على التناغم والانسجام قد أحيا فى نفوسهم معانى البطولة ومثل الأخلاق . ومن البين أن أهم صفات العمل الأخلاق هو جماله المشرق » ...

فالذى أعتقده هو أن الإغريق انما أقبلوا على الرقص الذى « يستمد ايقاعه من الموسيقى الشائعة فى الطبيعة » لأنهم قبل أن يرقصوا فاضت نفوسهم بالحياة الدافقة ، وأحسوا موسيقى الطبيعة الشائعة ، فأفاضوا الحيوية الكامنة فى كيانهم رقصاً ، وبادلوا موسيقى الطبيعة الشائعة ايقاعا . ولم يكن الرقص الا منفذاً للرصيد المذخور .

وليس الذى ينقص المشرقيين هو أن يرقصوا على نغمات الطبيعة ، ولكن الذى ينقصهم هو أن يدركوا هذه النغمات ، وأن يجدوا لها رصيداً يكافئها فى نفوسهم فيجاوبوها بهذا الرصيد .

ان الحيوية الكامنة هى التى تنقصنا — فيما أحسب — فليس لدينا منها ما ننفقه فى الرقص وما ننفقه فى المرح ، وهما منفذان يتسرب منهما النبع الفائض حين يفيض . فمتى يمتلىء الإناء الفارغ ، حتى يتسرب وحتى يفيض ؟

هذه هى المسألة يا عزيزى الدكتور !

* * *

ولا تختم الصحيفة على هذا التشاؤم ، فنى عدد الرسالة نفسه بصيص من نور فى مقال للدكتور محمد صبرى عن « علل المجتمع المصرى » جاء فيه :

« لكل مجتمع علله وآفاته ، ولكننا اذا استعرضنا علل المجتمع الأوربى كانت هذه العلل خاصة بمجتمع قد تهيأت له جميع المشخصات القومية ، وتجلت مظاهر القوة ومظاهر الضعف فيه . أما المجتمع المصرى فهو مجتمع فى طور الانتقال »

« والواقع أن علتنا وآفاتنا كثيرة نشأ معظمها من الاستعباد وطول عهوده . وقد أصبحنا وفينا مركب الشعور بالنقص . وهذا واضح جلى فى « معاملات » المصريين والأجانب . وما يقيت هذه العلة بغير علاج حاسم فستظل « الامتيازات » فى نفوسنا وأخلاقنا ، وان تكن قد محيت فى الورق والمعاهدات .

« وقد أصبحت هذه الحالة مدعاة لليأس والتشاؤم ، ففريق من المصريين يقول : إنه لا أمل فى اصلاح هذا الشعب . وفريق من الأجانب — وعلى رأسهم المؤرخ الكبير جبرائيل هانوتو — يقولون : إن مصر لا غنى لها عن الأجانب ، وان مركزها الجغرافى الى جانب ذلك يفرض عليها قبول سيطرة الدولة التى تهيمن على البحر الأبيض ، أى قبول الاستعباد فى شكل من أشكاله »

ثم يختم كلمته قائلا :

« وقد اخطأ الفريقان فى نظرهم وتشاؤمهم ، ويرجع ذلك الخطأ الى أنهما قد أصدرا حكمهما على الشعب المصرى باعتباره قد استكمل أداته للكفاح ، وأخذ أهبته وجرب وكبر واستقر. وبعبارة أخرى قد قطع مرحلة الانتقال وظهرت ملامح شخصيته الثابتة من حسنات وعلل وعورات

« ولو انهما انتهيا الى أن حالة مصر اليوم لا تزال حالة انتقالية ، وان بعض العلل التى تراها ليست من العلل « المزمنة » وقد تكون غريبة عن جوهر الخلق المصرى الصحيح ، وانها اذا عولجت امكن عنه ، وزالت كما يزول كل عرض ... أقول لو أنهما انتهيا الى ذلك لفهما أن تشاؤمهما أكبر خطر يتهدد الفكرة الاصلاحية ، بل وكل فكرة تطمح الى المثل العليا والسير بالبلاد الى أبعد الغايات » .

* * *

هذا التفاؤل مطمئن على كل حال . وفى هذا القول كثير من الصدق . وشاهده قائم فى الحياة المصرية القديمة والحياة المصرية اليوم . وقد كانت لمصر مناهجها الحية يوم كانت حياتها توحى بالمرح والابتهاج ... وحتى الرقص ، الذى يريد الدكتور مندور ليستجلبه لنا من الإغريق . قد حفظت لنا منه الصور الفرعونية والآثار مشاهد جميلة فائضة بالحيوية منسقة بالايقاع ، مشعة بالسرور !

فلنستمع الى صرخة الشاعر الإنسانية ، والى قفزة الدكتور النفسية ، والى تفاؤل الدكتور المطمئن ، فكلها دليل حيوية قد أخذت فى الظهور

سيد قطب

محمود تيمور

رائد القصة العربية

تأليف نزيه الحكيم

دراسة تحليلية لاتجاهات الأدبية الحديثة

فى آثار القاص المصرى

محمود تيمور

يطلب من مكتبة النهضة المصرية شارع عدلى بالقاهرة ، وكذلك من مكتبة مصر ٦٣ شارع الفجالة بالقاهرة

وثمن النسخة عشرة قروش